خيانة

بسط الليل رداءه على الكون، وانتشر الظلام فى أرجاء شقة رباب، ولم تكلف رباب نفسها مشقة أن تتجشم عناء النهوض من على المقعد فى حجرة المعيشة لكى تضغط على الزر الكهربى، وتضئ المصباح المعلق فى سقف الحجرة على مقربة من منتصفها.

وعلى الرغم من الظلام الذى انتشر فى الحجرة حول رباب، وجعلها لاتبصر شيئا، لم تشعر رباب بذلك لأن ماامتلأ به صدرها من أحزان جعل الظلام داخل نفسها أشد كثافة وحلكة، فظلت جالسة فى مكانها لاتقوى على أن تبرحه، وغامت عيناها وراء غلالة رقيقة من الدمع أبت أن تفارق عينيها منذ بضعة أيام.

بلغ أذنيها رنين جرس الباب،فهبت واقفة باهتمام بالغ وكأنها على موعد معه منذ فترة، وسارت بخطى واسعة لتغادر الحجرة، وذهبت إلى باب الشقة وفتحته، وفى نبرات صوت امتزجت بها رنة حزن أضفت عليها المزيد من الوقار، تسائلت:

- لماذا تأخرت ياهشام؟

أجاب هشام وهو مازال واقفا خارج باب الشقة حاملا أدوات الدرس الخصوصى، وينظر إلى أمه فى لوم وعتاب:

- لم أتأخر يا أمى، إن هذا الملل الذى أنت جالسة فيه جعلك تظنين أننى تأخرت.

فى الحال، استدركت رباب حقيقة الموقف، وبدت كمن تذكر شيئا فجأة. وقالت:

- معك حق. كنت نائمة.

وذهبت إلى المفتاح الكهربى، وضغطت على الزر، فانساب الضوء من المصباح، وأضاء الردهة، ودلف هشام من الباب، وأغلقه خلفه، وسار متوجها إلى الداخل، بينما ذهبت رباب إلى الأريكة، وجلست على ناحية منها.

جلس هشام على الأريكة على مقربة من أمه. وقال:

- سأستريح قليلا ثم أذهب إلى حجرتى لأستذكر دروسى.

ونظر إلى أمه لحظة متأملا، ثم أردف:

- الامتحانات صارت على الأبواب وعلىّ أن أنجح فى الإعدادية بمجموع كبير.

لمس ذلك وترا حساسا فى صدر رباب، فشعرت كأن انسكب فى جوفها جرعة جديدة من الحنان، وتوجهت إلى الله بالدعاء بأن يكتب له النجاح.

استولى على هشام الشعور بالشوق إلى أبيه، فثارت أحزانه واغرورقت عيناه بالدموع، فقد توفى أبوه منذ بضعة أيام.

نظرت رباب إلى هشام، ورأت ماكتسى به وجهه من حزن واكتئاب، فسألته عما به، ولم يستطع هشام أن يجيب عن تساؤلها لأنه موقن أنها تعرف السبب، لكنها تروغ منه، وأن لديها نفس الشعور الذى لديه إن لم يكن يزيد.

أرادت رباب أن تخفف عن هشام وطأة الشعور بالحزن، وأن تواسيه فى محنة وفاة أبيه، فضمته إلى صدرها فى حنان، غير أنها داهمتها موجة من الحزن أطاحت بما بذلته من جهد فى محاولاتها للتماسك والتجلد، وتلاشت مقاومتها، وانسابت الدموع من عينيها كالمطر المنهمر، فتركت هشام ومسحت دموعها، وحاولت أن تسيطر على أعصابها من جديد، وبلغ أذنيها صوت هشام كأنه قادم من أغوار بئر عميق. قال:

- لاتبك ياأماه، ترك أبى وراءه رجلا.

وأشار إلى نفسه بزهو. وأردف:

- هو أنا.

شعرت رباب أن هشام اكتسب من التجربة شيئا من النضج اتضح فى شعوره بالمسؤلية والرغبة فى الاعتماد

على الذات، وأرادت أن تنتزع من شفتيها ابتسامة، غير أنها عجزت عن تحقيق ذلك، واكتفت بأن ربتت على كتف هشام بحنان.

شعر هشام بالإشفاق على أمه، وتمنى لو أن بمقدوره أن يزيح عنها كل ماتشعر به من حزن، وانتابه الشعور بأنها اعتبرته مازال ضعيفا، وأراد أن تعتبره على غير ذلك، فاعتدل فى جلسته. وقال:

- جدى قال لى يجب أن تكون رجلا ياهشام.

سر رباب أن يستعين هشام بقوة الإرادة لتخفيف آثار الجرح، غير أنها لم تفه بحرف واحد ولاذت بالصمت، وبعد لحظات، نهض هشام واستأذن ليذهب إلى حجرته.

منذ شهر تقريبا كانت رباب قد تعاقدت على القيام بإحياء حفل كبير بفندق سمير اميس، وحان موعده غدا فى التاسعة والنصف مساء، وعندما توفى زوجها أمرت مايسترو الفرقة الغنائية بأن يتصل بمتعهد الحفل، وأن يطلب منه إلغاء التعاقد، وانتاب رباب الهواجس والشكوك حول قيام المايسترو بأداء هذه المهمة، لذا اتصلت به بهاتفها المحمول.

وكادت رباب أن تجن من شدة الغضب عندما علمت أن مايسترو الفرقة لم يتمكن من إلغاء التعاقد، متذرعا بأن المتعهد لم يوافق، كما أن الفرقة فى هذه الأيام تمر

بأزمة مالية حادة، وأنها فى أشد الحاجة إلى النقود، وأن جمهور الحفل يعشقون غناءها وطلبوها بالاسم، فاستولت الحيرة على رباب، وأخذت تفكر فيما ينبغى عليها أن تفعل.

بعد قليل، اتصلت رباب بمايسترو الفرقة ورجته أن يتصل بزميلتها نرجس وان يرجوها أن تقوم بإحياء الحفل بدلا منها، فوعدها المايسترو بأن يحقق طلبها، وبعد فترة قصيرة وصل إليها الرد على لسان نرجس، بأن اتصلت بها وشكرتها على حسن ظنها بها وأنها اختارتها لإحياء الحفل، فأحست رباب بالطمأنينة والارتياح، وذهبت إلى المطبخ لتقوم بإعداد طعام العشاء لها ولهشام.

فرغ هشام من تناول طعام العشاء وذهب إلى حجرته ليستأنف استذكار دروسه، وسرت رباب كثيرا، وقامت بإزالة بقايا الطعام من على المائدة، وبعد أن فرغت من أداء بعض الأعمال المنزلية، عادت إلى الردهة، وجلست على مقربة من باب حجرة هشام لتقوم بتلبية طلبه بسرعة إذا احتاج إلى شئ.

بعد قليل، ارتفع رنين جرس الهاتف المحمول، وردت رباب على المتحدث، وكان متعهد الحفل يبلغها بأن اعتذارها لم يقبل لأن كل شئ قد تم ترتيبه بعناية

ودقة، وأرادت رباب أن تثنيه عن عزمه فأخفقت، وانتهت المكالمة دون أن تصل رباب إلى شئ.

فى الحال اتصلت رباب بالمايسترو وروت له ماحدث، واستطردت قائلة فى ضيق وإنكار:

- قلت له إننى حزينة وأن جمهور الحفل يريد أن يفرح. فكيف أفرض عليه حزنى.. قال لى غير مهم.. كفى أن تقفى على خشبة المسرح. قل أنت.. ماذا أفعل؟

شعر المايسترو بالحيرة ولم يجب. فأردفت رباب فى ضيق أشد:

- هل أقول لهم أضحك والدمع فى عيونى.. وقلبى من الحزن بيتألم.. والنوم أهه خاصم جفونى.. والشوق فى قلبى حيتكلم.

صاح المايسترو قائلا:

- الله.. الله ياسيدة رباب.. هذه أغنية. لقد بدأت تؤلفين الأغانى، إننى سوف ألحن لك هذه الأغنية فى القريب العاجل. وستكون أغنية الموسم.

كادت رباب تبتسم، وأرادت أن تحسم الموقف.فقالت:

- ياااه يامحمد ياسعيد.. المهم هو أن تجد حلا لهذا الموقف.

قال المايسترو فى شئ من الاحتداد:

- الاعتذار يارباب هانم ليس فى صالحك ولا فى صالح الفرقة، لن يستطيع شخص أيا كانت ظروفه أن يقطع رزقه بيده. الفرقة فى أزمة مالية حادة، منيت فى الفترة الأخيرة بخسائر فادحة. عندك فرقة يحسدك عليها الجميع. بدأ الأعضاء يضيقون بالبطالة.. وهؤلاء الأعضاء إذا تركوا الفرقة والتحقوا بفرق أخرى لن تستطيعى أن تستردیهم مرة أخرى.. يجب أن تفكرى فى الموضوع بعقلك لا بعاطفتك تجاه المرحوم زوجك...و...

تسائلت رباب تقاطعه:

- وماذا؟

أجاب المايسترو:

- لدى كل عضو من أعضاء الفرقة زوجة.. لديه أبناء فى المدارس والجامعات يجب أن ينفق عليهم.

وضعت رباب الهاتف المحمول جانبا، واستغرقت فى التفكير برهة، وانتابها الشعور بأنها لن تستطيع أن تغير حقيقة شعورها، فقالت لنفسها:" كيف أكون حزينة وأستطيع أن اجعل الآخرين يشعرون بالسعادة؟! إننى أكاد أشعر بأن هذه خيانة..أجل خيانة.. إن لم يكن ذلك خيانة لمشاعرى فهى خيانة لزوجى...

ومالبثت رباب أن سألت نفسها فى حيرة:" لكن إلام يستمر ذلك؟ عملى هو أن أغنى... ولن أستطيع أن

أحترف مهنة أخرى." واستمرت رباب فى التفكير دون أن تصل إلى حل يحسم الموقف.

فى اليوم التالى، قبل موعد الحفل بوقت غير قصير وقفت رباب أمام مرآة منضدة الزينة فى حجرة نومها تتأمل صورتها المنعكسة على صفحة المرآة بتمعن، لتضع اللمسات الأخيرة على مظهرها، ورغم أنها بالغت فى التأنق ولبس الحلى، واستخدام مستحضرات التجميل، غير أن كل ذلك لم يستطع أن يخفى تماما مابدا عليها من حزن، فاكتسى وجهها بغلالة رقيقة من الحزن، وبدت آثار الدموع فى عينيها كأنها لألئ شفافة اللون، تألقت فى الضوء وألقت ظلالها على الجفون المتورمة من أثر البكاء.

بعد لحظات، انتاب رباب الشعور أنها فعلت أقصى مابوسعها، فابتعدت عن المرآة بسرعة كأنها تفر من أمامها، وذهبت إلى المنضدة وحملت حقيبتها، وغادرت الحجرة.

وقفت رباب فى الردهة خارج باب حجرة هشام، ونادت على هشام، وعندما رد عليها قالت فى رجاء:-

- هيا بنا.

وقف هشام عند باب الحجرة بملابسه المنزلية. وقال:

- لن أذهب.

لاحت الدهشة على وجه رباب عندما رأته على هذه الهيئة وقالت لتستميله:

- هل أذهب إلى الحفل بمفردى؟

أجاب هشام:

- أنت دائما تذهبين بمفردك.

وفى نبرات صوت توحى بالتصميم أردف:

- أريد أن أذاكر.

أثار ذلك فى نفس رباب ذكرى أنه كان يرافق أباه فى مثل هذه الأوقات، وأحست أنها ربما تنكأ جرحا مازال ينزف، فتأملت هشام ، ورأت آيات التصميم بادية عليه. ففكرت لحظة، ثم أخبرته بأنها لن تتغيب كثيرا، واستدارت وسارت متجهة صوب باب الشقة، وتبعها هشام ليحكم إغلاق باب الشقة خلفها.

بعد قليل، أوقفت رباب سيارتها أمام باب الفندق الذى سوف يقام به الحفل، وما أن هبطت من السيارة، ودلفت من الباب حتى استقبلها الحاضرون بحفاوة جعلتها تنسى مايعتمل فى صدرها من حزن، غير أنها أحست بشئ من القلق والاضطراب عندما ذهبت إلى القاعة، واستولى عليها شعور جعلها تبدو كأنها تواجه الجمهور للمرة الأولى، ثم أخذ هذا الشعور يتبدد شيئا فشئ.

لذا عندما شرعت رباب فى الغناء واندمجت فى الأداء،دفعها السرور الذى بدا على وجوه الحاضرين إلى أن تنسى مشاعرها الخاصة، كأنها قررت أن تحتفظ بها فى مكان مغلق، واستمرت على هذا الحال إلى أن انتهى الحفل.

وما أن خرجت رباب من الفندق وانفردت بنفسها فى سيارتها حتى عاودها الشعور بأنها خانت مشاعرها وخانت ذكرى زوجها الراحل.